الجليد يذوب:

بين موسكو والقاهرة !

وكانت الحفاوة العظيمة في الإسكندرية بداية النهاية لخروتشيف

علاقتنا بالسوفيت غريبة. كانت ولا تزال وسوف تبقى. لماذا؟ أن الأسباب كثيرة جدا. والقليل من هذه الأسباب هي التي نعرفها ولكن في النهاية نحن دائما أمام لغز لا نعرف له أولا ولا آخر. فمرة نحس أن كل شئ انتهى أن الجليد الذي بيننا قد ذاب.وأنه يمكن للإنسان أن يخوض في الطريق الطويل الممتد بيننا وبينهم ومرة نحس أن الجليد قد ذاب... ولكن هذا الجليد لم يكن سوى بحيرة عميقة جدا... فإن الجليد قد ذاب ليخلي مكانه لعائق مائي هائل.. ومرة ثالثة نحس أن الجليد قد ذاب ولكنه تحول إلى انهيارات جليدية أكثر خطورة من السير على الجليد، وأصعب على النفس من الانتظار الطويل حتى يذوب الجليد... ومرة نحس أن الأفضل أن يظل الجليد على ما هو عليه .. فهذا أوضح. لأنك ترى أمامك طريقا صحراويا أبيض... أو ترى أمامك جبلا من الجليد يعترض طريقك فتدور حوله. أو تتفاداه.

ولكن الإنسانية قد عرفت وبصورة عنيفة جدا ماذا حدث عندما اصطدمت السفينة الهائلة تيتانيك بجبل من الجليد في المحيط الأطلسي... فعندما اصطدمت به فوجئت بأن هذا الجبل قد ظهر ربعه على سطه الماء أما بقية الجبل فقد كانت تحت الماء. فقد ظهر الجبل كله واغرق السفينة ... يومها فقط ، وبثمن فادح جدا عرف الناس أن الجليد إذا كان جبلا واضحا، فإن الجزء الأكبر منه ما يزال خافيا تحت الماء.

ومن قراءة تاريخ الحروب في روسيا نجد أن الجليد هو المنقذ الأعظم .. فهو الذي أنقذ روسيا من قوات نابليون بل إن الجليد هو الذي دفن قوات نابليون في هذه الغلالة البيضاء... وهو أيضا الذي دفن قوات هتلر مرة أخرى.... وإن الجليد صديق الروس دائما، وفي الحروب يوصف الشتاء بأنه " الجنرال" فيقولون: وجاء الشتاء أعظم الجنرالات.. أي أنه إذا جاء الشتاء فقد انحسم الموقف لصالحهم .. والشتاء جنرال لأنه يملأ الجو بالبرودة لصالح الروس... فإذا كان الشتاء جنرالا، فإن الجليد ماريشال.

ولكن يبدو أن الجليد الذي يتزحلق عليه الناس ويجعلونه كرات يلعبون بها... ماتزال له صور أخرى يصعب فهمها .. ولكن أبناء الجليد، وخصوصا الروس يجيدون اللعب بها وعليها...

www.anwarsadat.org

من ذلك لعبة أخرى لا أعرف كيف أسميها. وإن كنت أختار لها أسما مؤقتا هو " غليان الجليد".

فاللعبة بيننا وبين السوفيت هي أنهم كانوا يحاولون أن يقدموا لنا الجليد وهو يغلي .. شيء غريب.. فهو جليد، ولكن يريدون أن يجعلوه يغلي ويحتفظ في نفس الوقت بكل صفات الجليد الباردة... كيف؟ هذه هي براعتهم في إبقاء الجليد جليدا، وفي نفس الوقت يغلي دون أن يذوب . وهي لعبة من أقسى ما عرفت في تاريخ العلاقات بين مصر وموسكو.

ولي تجربة خاصة لا أنساها : كان ذلك في سنة 1956 وكنا قد أممنا القناة، واهتز العالم العربي والدول الغربية وتربص بنا الاستعمار وكان ما كان مما هو معروف لدينا جميعا... ولكن في ذلك الوقت سافرت إلى باكستان وكانت باكستان تتهيأ لتغيرات عنيفة في السلطة فكان على رأس باكستان غلام محمد . كان مريضا مشلولا. وكانوا يفسرون ما يقوله بالنظر إلى حركة شفتيه. وكان معروفا أن الرجل لا يستطيع أن يستمر في هذا الوضع .

فالظروف عنيفة. والتغيرات مطلوبة. والرؤوس تطل من كل مكان تريد أن تقفز إلى مقعد الرجل. أو تلقى به وبمقعده، وتأتي بجديد من المقاعد أو من الناس. وقد حدث ذلك.

فوزير الداخلية في ذلك الوقت هو اسكندر ميرزا، وكان صديق كما أن غلام محمد كان صديق أيضا، وقد تقابلنا قبل ذلك بعام في المؤتمر الإسلامي. واستولى الجنرال اسكندر ميزرا على السلطة. وكان ذلك طبيعيا . و يوم حلف اليمين ، وصلت أنا إلى باكستان.

وكانت باكستان قد وجهت الدعوة إلى السوفيت لحضور حفلة اليمين، وأوفد السوفيت ميكويان. وكانت فرصة أن ألتقي به وأن أشرح قضيتنا من جديد. فنحن في حاجة إلى أن نشرح وأن نقول وأن نعيد ونزيد . وتم اللقاء بيننا. وكان ذلك في مبنى السفارة السوفيتية، وكما هي عادتهم دخلنا باباً من وراء باب... والأبواب كلها بسرعة تنفتح، وبنفس السرعة تنطبق وراءنا... وهذه عادتهم، لا يقابلون أحدا خارج السفارة ولا يتصلون بأحد. وكان عندي تصور عام لموقفنا وموقف السوفيت.

و كان من الضروري أن أطالبه بأن يكون للروس موقف واضح، فالوضوح مشكلة المشاكل بيننا وبين السوفيت.

إنه ليس ضبابا ذلك الذي بيننا ، أن الجليد بمعانيه وصوره وأشكاله وأحجامه المختلفة المحيرة... وقلت لميكويان أيضا: إننا في حاجة إلى تأييد السوفيت . وأن يكون التأييد واضح للعالم كله. وبدون هذا التأييد سيزداد موقفنا صعوبة. وتزداد علاقتنا تعقيدا وغموضا .

وكنت أطمع في أن أحصل على مجرد:" إعلان" عن هذا التأييد من السوفييت .. فقط " الإعلان" .. وطبعا مفهوم أن السوفيت إذا أعلنوا فلابد أن يكون هذا الإعلان له مضمون. أي ليس المطلوب مجرد كلام، وإنما أعلان عملي. وبذلك يصبح دورهم نشيطا معنا أو في المنطقة كلها.

ولكن الذي سمعته عن ميكويان هو أنه لا مانع من مجرد" الإعلان" أي مجرد النية الطيبة، ولا شىء بعد ذلك. ولكني كنت أتصور في ذلك الوقت أنه ليس من المعقول أن يجيء الإعلان فارغا.....أن يجيء بيانا أجوف.... فقد تمنيت استدراج السوفيت إلى إعلان، وعلى السوفيت أن يواجهوا العالم بعد ذلك.. وعليهم وحدهم أن يجيبوا على تساؤلات العالم كله" هل هو إعلان فقط؟

هل هي مناورة ؟ هل السوفيت يلوحون ويهوشون ؟ هل هم جادون؟

ولكن ميكويان، كأي سوفيتي كبير مسئول فاهم سياسة بلاده ومناوراتها، لم يوافق على هذه النكرة، ورغم ذلك فقد أصدروا بيانات تأييد لها كلمات تطن، ولها عبارات ترن . هذا كل ما يريدون، وكنا نطمع في أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك، أو حتى يتورطوا إلى أعمق من ذلك.ومن المؤكد أنني لم أطلب من السوفيت أن يتورطوا إلى درجة إرسال قوات سوفيتية تحارب معنا .

أنا أعرف أن ذلك مستحيل. ولكن كنا نتمنى أن يعلنوا عن فتح باب تطوع المسلمين في داخل الاتحاد السوفتيي. ...

ففي روسيا جمهوريات إسلامية فلو سمحوا لأبنائها بالتطوع للوقوف إلى جوارنا ، لكان موقفنا مخيفا لخصومنا.

وفي ذلك الوقت كنا قد اشترينا السلاح الروسي، وبدأنا نتدرب عليه. والتدريب شاق وطويل وكنا في حاجة إلى طيارين، فلو جاءنا طيارون مسلمون ، لكان ذلك عونا لنا في موقفنا الصعب.

www.anwarsadat.org

ويبدو أن هذه المطالب لم تكن مقبولة من أولها لآخرها.

وعدت أطلب من ميكويان في جلستنا التي طالت أن يعلن الاتحاد السوفيتي" فقط" عن فتح باب تطوع المسلمين أو أنه لا يمانع في ذلك. وأكدت لميكويان أن هذا الإعلان سوف يكون عنصرا جديدا يهز المنطقة حولنا، ويرهب المعسكر الغربي، فكل ما طلبته هو مجرد أن نرفع درجة حرارة الجو السياسي والعسكري.

ومن المؤكد أن السوفييت لو وافقوا على فتح باب التطوع لجاءنا الكثيرون.. ولكن ميكويان رفض التطوع ورفض فكرة الإعلان عن ذلك ولابد لي أن أتساءل عن مثل هذه المفرادت التي يسرف السوفيت في استخدامها معنا: الصداقة.... والدعم... والتعايش السلمي... والسلام... ومساندة الاشتراكية... والوقوف بصلابة في وجه المحاولات الإمبريالية لاحتواء الثوارت الشابة .. إلى آخر مثل هذه المفردات . وبعد ذلك لابد أن أتساءل : ما الذي فعلوه ، وما الذي كان في استطاعتهم أن يفعلوه ثم عدلوا عنه... والمراجعات المستمرة لسلوكهم العام... وأين هم من الأصدقاء وأين نحن من أعدائهم؟

أعود مرة أخرى إلى ما كان بين السوفيت وجمال عبد الناصر، وهو أشد عنفا من هذا، وإن كان المعنى واحدا، والسلوك واحدا. ونوعيات الجليد المستخدمة على كل الطرقات من كثافة واحدة... فخروشيف قد هاجم الوحدة بين مصر وسوريا التي تمت في 22 فبراير سنة 1958 . ومن المنطقي– ماركسيا– أن يفعل ذلك . فهم – أي الشيوعيين – ضد القومية. وهم ينادون بتذويب القوميات، أي بالقضاء عليها تماما... أي بتذويبها أو تمييعها أو إعدامها في بناء" أممي" " شعوبي" واحد كما يقولون . وكان موقف خروتشيف عجيبا فقد جاءت عباراته عنيفة. وكانت مفاجأة لنا .. ما الذي أصاب الرجل؟ ما هي الجريمة التي ارتكبتها مصر؟ أو ارتكبها ملايين المصريين والسوريين؟ أليست هذه الوحدة ضد الاستعمار ضد الغرب... أليست هذه ثورة وراء ثورة ضد الإمبريالية .. أليس هذا سدا منيعا ضد الغرب الذي طرده من هذه المنطقة .. ثم من الذي يمكن أن يستفيد من الثوارت الشابة بالمعاونة و المصادقة والرعاية...

شيء عجيب .. ولكن بدأنا نتعود على العجائب في علاقتنا مع السوفيت..

ومن المناسب أن أتراجع إلى الوراء قليلا لأرى الصورة أوضح.. فقد كانت حملات خروتشيف في سنة 1959 .

ولكن شيئا حدث في صيف 1958 يستحق التسجيل والتأمل أيضا.

www.anwarsadat.org

ففي صيف 1958 سافر جمال عبد الناصر على ظهر السفينة " المحروسة" إلى يوغسلافيا. وكانت معه أسرته والدكتور محمود فوزي . انتهت الزيارة في هدوء . وعاد جمال عبد الناصر مستريحا بمناقشاته مع تيتو . ولكن عند عودته، مارا ببحر الأدرياتيك اتصل به الرئيس تيتو وأخبره أن ثورة اندلعت في العراق . و أن البحر الأبيض لم يعد آمنا. وخير له أن يعود . وتناقش جمال عبد الناصر مع د. محمود فوزي وقرر أن يعود إلى يوغسلافيا ومنها إلى موسكو . وركب جمال عبد الناصر إحدى المدمرات اليوغسلافية التي كانت تحرسه وعاد بها إلى ميناء بولا اليوغسلافي. وركب طائرة نقلته إلى موسكو. ومفهوم طبعا أن سفر جمال عبد الناصر إلى موسكو هو سفر صديق إلى الدولة العظمى الصديقة. فهو يريد أن يعرض وجهة نظره وأن يطلب من السوفيت المساندة والوقوف وراء التطور الجديد في المنطقة.

ولم تكد الطائرة تصل إلى حافة مطار موسكو، حتى انتقل جمال عبد الناصر بعيدا عن العيون إلى خارج موسكو. وهناك التقى بخروتشيف في فيلا أو شاليه يسمونه" داتشا".

وفي هذا المكان الهادءى الجميل الأنيق. اجتمع جمال عبد الناصر بخروتشيف أكثر من 16 ساعة . ولم يتعب جمال عبد الناصر من شرح كل شيء لخروتشيف . ذلك الحليف الذي يساند مصر. فشرح له الأنظمة الموجودة في المنطقة . الأنظمة التي يخشى منها على ثورة العراق...

ويخشى أن تصبح هذه الأنظمة نقطا للوثوب والانقضاض على الثورة العراقية الجديدة. ففي لبنان كان كميل شمعون وهو عميل انجليزي. وفي الأردن الملك حسين ابن عم الملك فيصل ملك العراق الذي قتل في الثورة . وكانت هناك وحدة قامت بين العراق والأردن ردا على وحدتنا مع سوريا . ولم يترك جمال عبد الناصر شيئا في نفسه لم يقله لخروتشيف.

وعاد جمال عبد الناصر من موسكو إلى دمشق واحتشدت الجماهير لتعرف ماذا حدث ومعنى ما حدث.

وأين مصر من هذا الذي حدث في العراق، وما موقف الدول الكبرى، وجاء جمال عبد الناصر وأعلن من شرفة قصر الضيافة في دمشق أنه لا خوف على ثورة العراق ولا هم يحزنون . وأن الاتحاد السوفيتي، كعهده دائما، يقف وراء انتفاضات الشعوب. وأن الوقوف وراء ثورة العراق هو وقوف ضد الاستعمار الذي يريد أن يخنق الشعوب وفي نفس الوقت ضد الأحلاف الغربية العسكرية التي تريد تطويق الاتحاد السوفيتي.

وكانت فرحة الجماهير العربية لا توصف فقد ذهب جمال عبد الناصر وقال وسمعوه ووعدوه وعاد مليء القلب والجيب بكل إمكانيات السوفيت بعمل شيء من أجل سلامة ثورة العراق والتي قامت ضد الرجعية العربية ومتأثرة بثورة مصر وعلى منوالها.

هذا هو الذي رآه الناس في الشرق والغرب، والذي أعلنه جمال عبد الناصر بحماس شديد من شرفة قصر الضيافة. فجمال عبد الناصر، وأي زعيم عربي، لا يطمع في أكثر من هذا الذي حصل عليه من السوفتيت.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماما!!

فجمال عبد الناصر عندما كان يؤكد للناس أن يطمئنوا ، لم يكن هو نفسه كذلك. وعندما راح جمال عبد الناصر يزف للأمة العربية موقف السوفيت الصلب وراءهم، كان ينزف دما.. فلا شيء من هذا الذي قاله وأعلنه صحيح . وعليك أن تتصور شكل زعيم يواجه الملايين ويقول ويصفقون له ويصرخون من شدة الفرحة، وهو يعلم والسوفيت يعلمون أن هذا كله لا أساس له من الصحة أو الصدق!!.

وأنا سمعت تفاصيل ما جرى في الـ 17 ساعة من جمال عبد الناصر شخصيا. فقد قال لي جمال عبد الناصر إنه حاول إقناع السوفيت بالوقوف وراء ثورة العراق. وأن هذه الثورة هي كسر لحزام الأمان الذي وضعه الأمريكان حول الاتحاد السوفيتي. وأن هذه الثورة قد قامت ضد سياسة الأحلاف.. ضد احتواء الغرب لروسيا . ولم يشعر جمال عبد الناصر بمرارة وتعاسة في حياته كلها.. كما شعر بعد وأثناء الـ 17 ساعة التي أمضاها مع خروتشيف في أجمل مكان في روسيا....

كل شيء كان حول بعد الناصر مختلفا عنه: كان ثائرا صارخا، " والداتشا" هادئة، كان قلقا والماء في البحيرة ساكن، كان في حالة من الفزع، والوجوه حوله جامدة.

كان يقول .. وكأنه لا يقول .. ولم يفلح جمال عبد الناصر في أن ينقل مخاوفه إلى خروتشيف أو مساعديه فقد كان هناك خوف على ثورة العراق... كان هناك خوف أن تنقض عليها أنظمة عملية أو يحدث انقلاب في العراق أو تمرد.. أو تمزق.

وبعد 17 ساعة مريرة، أطول 17 ساعة في حياته– كما قال لي بالحرف الواحد. هز خروتشيف رأسه. وأحس جمال عبد الناصر أن خروتشيف سوف يقول شيئا يريحه بعد المرافعة الطويلة، ولكن خروتشيف قال له : ممكن .

وتساءل جمال عبد الناصر : ما هو هذا الممكن؟

قال خروتشيف: أن نتخذ موقفا.

قال عبد الناصر: الحمد لله ما هو؟

قال خروتشيف: نستطيع أن نحشد قواتنا.

قال عبد الناصر: عظيم!

قال خروتشيف: على حدود تركيا.

قال عبد الناصر: على حدود تركيا! ؟ ولكن لماذا؟

قال خروتشيف: لتخفيف الضغط ولتحويل الأنظار... ما رأيك ؟.

ولم يكن لجمال عبد الناصر رأي بعد هذا كله. فلم يكن يتوقع بعد هذه المرافعات والمحاكمات والاستعراضات والصرخات والنداءات والتوسلات أن تسفر كلها عن مظاهرة عسكرية... أي عن قوات روسية تتحرك في داخل روسيا لتقف على حدود روسيا تدعيما لثورة العراق. هل هذا كل ما يستطيعه الروس.

وتساءل عبد الناصر : لا شيء أكثر من ذلك؟.

وكان رد خروتشيف: لا شيء أكثر من ذلك.

قال عبد الناصر: ورغم كل الذي قلت وشرحت.

وكان رد خروتشيف: رغم كل ذلك.

وعاد عبد الناصر يقول: إنها فرصة أمام الاتحاد السوفيتي للقضاء النهائي على العملاء وعلى أعوانه ... ثم إنها خطوة تجذب كل شعوب المنطقة فتلتف حول روسيا... إنها فرصة لا يمكن تعويضا.

ولكن خروتشيف هز رأسه... وازداد وجهه احمرارا وعيناه أيضا... وحرك يديه الصغيرتين. وقال: فهمت.

وسأله عبد الناصر لآخر مرة: ما الذي فهمت؟.

www.anwarsadat.org

وكان الرد الأخير: أنه لابد من مظاهرة عسكرية على حدود تركيا لمساندة ثورة العراق ضد الأحلاف الإمبريالية!.

وفي شرفة قصر الضيافة في دمشق واجه عبد الناصر الملايين، وأخفى جرحه ومرارته وقال شيئا آخر .. ولم يشأ أن يكشف عن هذه الطعنة التي أصابته في أعمق أعماقه!

ولكنه ادخرها لما بعد.

وكان خروتشيف هو البادىء بعد ذلك.

فعندما تمت الوحدة مع سوريا.. وعندما انكشف الوجه الحقيقي لثورة العراق. فلم يكن عبد السلام عارف هو الثورة أو هو الثائر. وإنما كان عبد الكريم قاسم. وكان شيوعيا معروفا مسجلا في قوائم الحزب الشيوعي . هنا فقط أدرك الاتحاد السوفيتي وراء عبد الكريم قاسم. وهاجم مصر بوضوح، وأعلن خروتشيف استخفافه واستهجانه" لهذه " الوحدة" بين مصر وسوريا.. هذه الوحدة " العربية .. وأن هذا مظهر من مظاهر التكتلات البدائية الساذجة المتخلفة .. فالعرب ما يزالون أطفالا.. يجتمعون تحت كلمة اللغة أو الدين أو القومية إلى آخر هذه" الهلوسات" السياسية كما يقول خروتشيف.

أما جمال عبد الناصر فقد قبل هذا التحدي العنيف من الاتحاد السوفيتي.. وهاجم الاتحاد السوفيتي. وطلب مني جمال عبد الناصر وكنت أيامها رئيسا للاتحاد القومي أن أشرح للناس في مصر أبعاد هذه المهزلة والمأساة معا.

وذهبت أخاطب الناس من القاهرة إلى أسوان.

وحاول الأمريكان في ذلك الوقت أن يتصلوا بجمال بعد الناصر في دمشق. ولكن المعركة استمرت مصرية ضد السوفيت.

وما لبثت هذه المعركة أن هدأت.. انخفضت درجة الحرارة... زال البخار والضباب معا... ووضح الطريق.

وتوقفنا عن مهاجمة روسيا، وأمسك خروتشيف لسانه.

ولكن هذا الهدوء كان نسبيا . لم يطل. وكان من الطبيعي هو أن يكون خلاف وتشنج في علاقاتنا مع السوفيت...

ولا أعرف الآن بوضوح إن كانت " شعرة" معاوية ابن أبي سفيان يمكن أن تكون وسيلة للاتصال بيننا وبين السوفيت... فمعاوية هو الذي قال: لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؟ كيف؟ يشرح معاوية ذلك وهو رجل سياسي داهية: إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها.

وهكذا تظل" شعرة" الصداقة أو المصلحة لا تنقطع.. مهما بلغت درجة شدها أو درجة تركها .

ولكن يبدو أن هذا كلام يقال . ولكنه عمليا شئ صعب جدا. وخصوصا إذا كان طرف الشعرة يمسكه السوفيت... والأدلة على ذلك كثيرة، كما سنرى.

وأول ما يصادفنا بعد هذا الهدوء ، أن وقع الانفصال بين سوريا ومصر سنة 1961 – وقع الانفصال. وهنا انطلق لسان خروتشيف وهو لسان طويل. ويبدو أن هذا الرجل لم يطق صبرا على هذا الصمت المريب الرهيب.

وخروتشيف هو أول زعيم في العالم يخلع جزمته ويدق بها منصة الأمم المتحدة... في حالة غضب.. ويبدو أنه من ذلك الطراز من الناس الذي لا يعرف كيف يخفي لسانه أو حذاءه إذا ما أتيحت له الفرصة . وجاءت الفرصة .

انفصلت سوريا عن مصر وأعلن خروتشيف : ألم أقل لكم أيها العرب السذج؟

وكان يقصد جمال عبد الناصر طبعا.

ودخلنا في معركة جادة مع السوفيت ... فقد كان جمال عبد الناصر في حالة أليمة، فالوحدة قد انهارت فجأة، والسوفيت شامتون إلى هذه الدرجة وغير السوفيت في مصر وفي البلاد العربية.. ولم يستطع جمال عبد الناصر أن يبتلع هذه المرارة، ولا أن يسكت عليها.

وفي مواجهة هذا الانهيار من الخارج والتنسيق من الداخل، كان لابد من إقامة بناء فكري يمسك مصر ويهدي خطاها نحو العمل الوطني وبناء حاضرها.